مقدمة

فتحت عيني أول ما فتحتها في حداثتي على دنيا تنتزع الكرة من يد الطفل وتقول له: «أتظن نفسك طفلا، له أن يلهو، ومن حقه أن يرتع ويلعب؟ لشد ما ركبك الوهم يا صاحبي! لا كرة ولا لعب. وعليك أن تثب الآن وثبًا من هذه الطفولة التي كان ظنك أن ترتع في ظلها إلى الكهولة دفعة واحدة! حتى الشباب يجب أن تتخطاه وثبًا أيضًا».

وأنكفئ إلى أمي أسألها عن الكرة لماذا حرمتها دون غيري من لذتي فلا تقول أنها آسفة ولا أنها ترثي لي، أو أن قلبها يعصره الألم من أجلي، بل تضع راحتها الرخصة على كتفي وتقول لي بصوت متزن: «اسمع يا بني إنك لم تعد طفلا، وإنما أنت رجلنا الآن، وسيد البيت ورأس لأسرة وكبيرها! أي نعم. فقد ترك لنا أبوك مالا كان فوق الكفاية ولكن المال ذهب، ولم يبق لنا شيء».

فسألتها: «هل معنى هذا أننا سنجوع ونعرى؟».

فلم ترحمني. وقالت: «قد نجوع ونعرى! من يدري؟ ولكن أملي في الله كبير، وعندي حلي ومتاع لا حاجة بي إليه، فسأبيع من هذا ونقتات ونكتسي، وستواصل التعلم -ما من هذا بد- حتى ينفد المال، وينضب المورد، وعسى أن يكون بعد العسر يسر، فما يئست من رحمة الله. ولكنني لا أرى أن نعتمد على غير ما بأيدينا، وهو قليل فاعرف هذا، روض نفسك على السكون إليه والنزول إلى حكمه».

قلت: «ولا العب؟»

قالت «بلى، ولكن بغير كرة نضيع فيها مالا بنا حاجة إليه لقوتنا، إن الكرة تشجع على الركض، وتغري بالنط، فاركض بدونها، ونط بغيرها وسترى أنك لن تخسر شيئا».

فصرت أركض لأن هذا واجبي، وما تتطلبه الحيوية التي لا تزال مقصورة على أعضائي، على حين كان يركض غيري للهو والتسلية.

فعرفت في التاسعة من عمري -وهي سن غضة جدًا- أن هناك واجبات تؤدى لذاتها، وحقوقًا تقضى لأنها حق، لا لأن فيها متعة ولذة، وأحسست من صغري أن شأني غير شأن الناس، وإني فقير وإن كنت مستور الحال، ولكن الستر لا ينفي الشعور بالفقر وغضاضته ومضضه، فأرهف ذلك إحساسي، حتى صار ينحي مثل حد المبراة على قلبي فيخزه ويقطعه، فنزعت شيئا فشيئا إلى الانقباض عن الناس، واتقاء الخوض معهم فيما يخوضون، مما يستدعي نفقة وتكون فيه كلفة.

وقوى هذا الميل في نفسي وعمقه إني ابع الذي سمعته ووعيته من أمي، قصدت إلى أخي الأكبر -وهو من غير أمي- وسألته عن مال أبينا أين وكيف ذهب؟ فقال وهو يكاد يشرق بدمعه، وأنا أنظر إليه جامد العين أنه هو الذي أضاعه، وجر علينا هذه المحنة، ولكنه يرجو أن يعوضنا خيرا مما أتلف، فأحسست أني شببت جدا عن الطفولة في تلك اللحظة!

وانصرفت وأنا أتساءل «أليس كل امرئ حقه؟ فكيف يتسنى لواحد أن يجني على جماعة؟ وكيف ولماذا يجد الوسيلة إلى ذلك»..

وصرت أخاف الناس وأنظر إليهم شذرًا. وإذا كان الأخ يجني على إخوته وأمهم وجدتهم، فما ظنك بالغريب الذي لا تصلك به رحم، ولا تعطفه عليك

عاطفة من قرابة أو نسب...؟!».

وأقبل علينا قريب لنا يقول: إن في وسعه أن يرفع عن كاهلنا عبء نفقات التعليم، ولكن «الواسطة» يطمع في جزاء أو «رشوة» فأبت أمي كل الإباء، فما زال بها حتى ملت إلحاحه، فدفعت إليه ما يطلب، وغاب شهور الصيف ثم جاءنا يقول: إن الوزارة أعفتني من نصف نفقات التعليم، فقلنا: شيء خير من لا شيء. ولكنه كان كاذبًا، وتبينا أنه لم يرشِ أحدًا، وإنما استحل أن يسرق مالنا نحن الفقراء بهذه الخدعة.

فزاد سوء ظني بالناس، وانزويت عنهم، وأقبلت على دروسي لأفرغ من التحصيل بأسرع ما يستطاع، فيتسنى لي بعد ذلك أن أكسب رزقي، وأنقذ نفسي وأهلي من هذه الفاقة التي منينا بها لغير ذنب جنيناه.

وترك هذا كله أثره في نفسي، فاجتنبت أن أعاشر إلا الذين أرى حالهم يشبه حالي أو يقاربه، وصرت أشعر أني غريب إذا ألقت بي المصادفات بين قوم من السراة أو الأثرياء أو المتظاهرين بالغنى، كأنهم ناس من شاكلة أخرى، وخلق مختلف، فكنت أنفر أشد النفور من مجالستهم أو مخالطتهم، ويكبر في وهمي أنهم لا يخفى عليهم أني نشأت فقيرًا، وإني امتحنت في صباي أقسى امتحان، وإن ما أراه من مظاهر غناهم ليس إلا مخايلة مقصودة يشقون لي بها جفوني ويطلعوني على ما بيني وبينهم من بون.

وكنت قد كبرت وأصبحت معلمًا، وعندي فوق الكفية من الرزق فأشفقت أن يورثني هذا عقدة نفسية أو «مركب نقص» كما يسمى. فعالجت ذلك بالتمرد، ورحت أعد الذين نشئوا في حجر النعمة وظل اليسار، من المنبوذين، لأنهم متكلفون

غير مخلصين لأنفسهم ولآدميتهم، ولأنهم مترفون، متطرون خرعون، لا يعرفون شرف الكد، ولا يدركون مزية الكدح والسعي، وإنما يعيشون عيشة الفضول والتطفيل، ولا يحيون حياة صحيحة، ملأى بحركة الشعور والعقل، فلا احتفال بهم ولا اكتراث لهم، وأنا وأمثالي أحق منهم بالكرامة وأولى باستيجاب التعظيم.

وارتفعت بها السن شيئًا فشيئًا، وزادت التجربة، ورحب الأفق على الأيام. فأدركت أني أسرفت على نفسي وعلى الناس، وتبينت أن لا داعي للمرارة، فقد أفادتني المحنة صلابة وعزما وثقة بالنفس وجرأة على الحياة والمغامرة فيها، ولو كنت نشأت في نعمة سابغة لكنت حريا أن يفسدني التدليل، ولا ذنب للناس جميعا فيما كان من أحدهم أو بعضهم وفي الدنيا الصالح والطالح، ومن الظلم أن يبوء البريء بإثم المذنب، وأن تؤخذ الجماعة بجريرة واحد، وكل امرئ يزل، والعصمة لم يؤتها إنسان وحتى ما جنى أخي قمن بالغفران، فما هو في ذاته بالذي توصد دونه أبواب العفو، وما عدا المسكين أنه طاش طيشة كان من الجائز أن أطيشها لو كنت مكانه وكان حبلي على غاربي كما كان على غاربه، وما أعرفه أفاد إلا متعة قصيرة وحسرة طويلة على ما ضيع، وما أهداه إلينا من الكرب الجسام، فهو جدير بالرثاء والرحمة والنقمة. وما شهدت النعمة التي تقلب فيها زمنا وجيزًا، ولكني شهدت الندامة التي ظلت تأكل قلبه بقية حياته، وكنت على الرغم مما أساء أوقره وأنزله منزلة الوالد لأنه أسن مني، ولكنه هو كان أشد توقيرا لي مني له، وأعظم بي تحفيا. ولما نشرت أول كتاب لي -وكان ديوان شعر- حملت إليه أول نسخة منها أخرجتها المطبعة، فتناولها معجبا، وقلبها جذلا، وشرع يقرأ، فما راعني إلا دمعه المنهمر، من فرط الحنو والزهو، فنهضت إلى زوجته وتشاغلت بالحديث معها، فما أطيق البكاء، ولا أعرفه، وإني لأدري أن الدمع رحمة وأنه كما يقول ابن الرومي:

لم يخلق الدمع لامرئ عبثًا ... الله أدرى بلوعة الحزن

ولكن قسوة الكفاح ومرارة الصبر على طول الحرمان، جففتا عبراتي، وعلمتني أن أبكي بقلبي دون عيني، وأن أستر ضعفي عن الناس، فلا أبدو لهم إلا بصفحة وجه يقرءون فيها آيات الرضا والاستبشار والثقة. والفضل في ذلك لأمي، فقد جئتها يوما أبكي لأن غلاما ضربني فأوجعني فنظرت إلي باسمة، ولم تربت على كتفي، ولم تكفكف دمعي، ولا واستني، وإنما قالت لي: «رجلنا يبكي؟ فماذا عسانا نصنع نحن النساء الضعيفات؟» فخجلت، ولم أكن خبرتها الخبر. فقلت -كأنما كنت فعلت: «ولكنه أكبر مني» قالت: لا شك، ولكن حيلتك ينبغي إذن أن تكون أوسع، فما غلبني بعد ذلك اليوم غلام أسن أو أكبر جسما، حتى خافني صبية الحارة وحرصوا على اتقاء شري.

والعبرة بالخواتيم، وقد انتقلت بي الحال بعد طول الضنك إلى سعة مرضية وخير كثير فالحمد لله على ما أنعم ويسر.

ورضيت عن الدنيا وانشرح صدري للحياة ووجدت أن التسامح الذي مبعثه الفهم وصحة الإدراك أجلب لسرور القلب وطمأنينة الخاطر، وسكينة النفس، من تلك المرارة القديمة التي كان ينضح بها الوجه ويقطر اللسان. وألفيتني أغتبط بأن أتلمس ما يروق ويسر من جوانب الحياة، وأن أبرز هذه الجوانب الوضيئة للناس وأشركهم معي في نعيمي بها، وأحاول أن أفتح لهم كوى تدخل منها الشمس فتضيء لهم وجوه العيش وتمنحهم الدفء، وتشيع الابتسام والجذل في وجوههم وقلوبهم، وأن أقطف لهم من أزهار الحياة ريحانا وآسا ونرجسا، وأن أجمل ما كان يبدو لي ولهم دميما، وأزين العاطل، وأرقرق الماء في حواشي النسيم ليعود أندى على القلب وأثلج للصدر..

وتوسعت في هذا وتعمقت، فقلت: إني مثل الناس غيري ومنهم، وكلنا مجبول

من طين واحد، ولست خلقا قائما بذاته، أو بدعا في هذه الدنيا، ومن الممكن أن أعرف الناس معرفتهم إذ أنا وسعني أن أعرف نفسي، فصار دأبي بعد هذا أن أخلو بنفسي، وأحاسبها، وأراجعها، وأغوص في أعمق أعماقها على بواعثها، وعلى ما تغري بها غرائزها المهذبة أو الساذجة، وأن أقف على دواعي ضعفها ونقصها، وأسباب قوتها، وجعلت وكدي كلما بدا لي ما يسوء، أو يريب أو يسخط، من أحد أن أحاول أن أضع نفسي في مكانه، وأن أنظر ماذا كنت خليقا أن أصنع لو أنني كنت محله، وكان يحيط بي ما يحيط به، وكان لي مثل حظه الكثير أو القليل من العلم والتجربة، فأصبحت فيما أعتقد -غير مغرور أو مخدوع فيما أرجو- أعدل وزنا وأكثر إنصافا، وأسرع إلى تمهيد الغدر مني إلى سوء الرأي.

وليس معنى هذا أنني الآن أرى أن الدنيا وأحوالها على خير ما يمكن أن تكون، أو أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، أو ما هو كائن. كلا. ولكني أرى أن معالجة السوء والفساد بحسن الإدراك، وصحة الفهم، والرفق والحسنى، أجدى وأرشد. وماذا يفيد تعذيب النفس بالتسخط وتلهب الغضب واحتدام النقمة؟ إن الذي له قيمة هو أن ندرك أن هناك ما يستوجب الإصلاح والتقويم، وأن نهتدي إلى وسيلة الإصلاح ومدتاه وليست ثورة النفس بالتي تعين على هذا وتيسره، فإنها خليقة أن تورثنا اضطرابا في التفكير، وأن تجمح بنا إلى غير ما يشير به العقل، وتصفة الحكمة. وإنما الذي يعين على الصلاح والخير، والتفكير الهادئ والتدبر الرصين، وقياس مبلغ القدرة إلى الأمل، وأصالة الرأي، والحذق في التدبير، ولا سبيل إلى شيء من هذا إذا اهتاجت النفس، وقامت قيامتها وثارت كاللجة المربدة.

ولماذا أكتب كل هذا؟ ما صلته بموضوع الكتاب؟ لا أدري سوى أني لطول اعتباري أن أتدبر نفسي وأدير عيني في جوانبها، أصبحت أعتقد أني أستطيع أن

أعرف الناس بنفوسهم إذا وسعني أن أكشف لهم عن عيونهم صورة صادقة لا مزورة ولا مموهة من هذا الإنسان الذي هو أنا، والذي هو أيضا كل امرئ غيري. وليس هذا بالمطلب الهين، وما كان مناله قط، ولن يكون دانيا. غير أن ما لا يدرك كله، لا يترك كله، وعلى المرء أن يسعى جهده، وعلى الله التوفيق، وإن طاقة الإنسان لمحدودة ولكنه ليس عاجزا كل العجز، ولو أن كل إنسان أخلص وصدقت سريرته وبذل ما يدخل في وسعه، لعادت الحياة أطيب وأبعث على الرضا.

وأحسب أن من بواعثي على هذا الاستطراد، أني أقول لنفسي: إذا أنا لم أنفع بتجربتي وفهمي هذا الجيل الذي يفذ الخطى وراء جيلي، فما خي أني كنت وعشت، وفهمت أشياء وجربت أمورًا، وألمت الحقائق؟ إن من ألأم اللؤم أن تبخل بعلمك على غيرك. وقد يعذر الذي يضن بالرغيف وهو جائع، على رفيقه، وفي الطباع الإنسانية أن يؤثر المرء نفسه، في خصاصته على غيره وقد يبلغ المرء من الحرص على الذات في المحنة أن يخطف اللقمة من فم ابنه وهو صنؤه وفلذة كبده لأن التضور وخوف التلف الوحي يثيران غريزة حفظ الذات فيذهل الإنسان عن واجب المروءة، وواجب الأبوة، ولكن المعرفة ليست مادة يحفظ بها البدن من الوبال وهي لا تنقص بالشيوع والاستفاضة ونصيبك منها لا يقل إذا بلغ فيها غيرك مبلغك، وفي وسعك أن تهدي منها ولا تخش عليها النقص، ومن المحقق أنك أحرى أن تكون أسعد إذا صار الناس أعلم وأفطن وأوسع مدارك وألطف حسا.

فالضن بالمعرفة ضيق عقل وسوء رأي، ولؤم نفس وخسة طباع بلا مسوغ ولا فائدة ما، لأن الناس يصلون إلى المعرفة أردت أو لم ترد، وبمعونتك أو بغيرها، فما أنت في الدنيا بالوحيد الذي ينظر فيجد، ويبحث فيهتدي، ويعالج فيوفق.

وأمر آخر أردته، وأظنه مما ساقني فاستطردت. ذلك أن الناس أشباه متماثلون

وإن تفاوت بهم الأموال، وليس اختلاف النشأة بمانع أن تكون التجربة من معدن واحد، وإن كان المظهر يوقع في الروع لأول وهلة أن المخبر شيء آخر.

١

تلك كانت حياتي، فقد نشأت في بيت صام التقاليد في ساحته الواسعة مصلى وميضاة، وعلى جانبي مدخله غرف لإقامة الأتباع والتلاميذ والمريدين، وكانت آخر هذه الحجرات، ما يلي الساحة مباشرة غير مسقوفة، وكانت تتخذ اصطبلا لمن له بغلة أو فرس أو حمار، وبعد المغرب من كل خميس يجتمع المتفرقون من هؤلاء الأتباع في المصلى، ويتلون «الورد» وهم قعود، ثم يذكرون الله، ثم يقومون إلى صلاة العشاء، ثم إلى الطعام فالخلوة، وفي الفجر يخرجون إلى مقبرة الشيخ الكبير... وهناك يتلى «الورد» مرة أخرى، وتعقد حلقة الذكر.. ثم يؤكل «الفول النابت» والخبز.

وكان يروقني هذا ويستولي على خيالي، فأشاركهم فيه، وأتلو الورد الذي يتلونه، وأصلي على النبي كما أراهم يصلون، وأهز رأسي وجسمي في الصف عند «الذكر» كما يفعلون، وأحاول عبثا أن أجعل صوتي غليظا عميقا، وأرافقهم في الفجر إلى المقبرة، وأزيد عليهم فأعرج على قبر أبي فأزوره ثم أرتد إلى الحارة واللعب، والقلب راض والنفس ساكنة.

ولم يكن هذا بيت أبي، وإنما كان بيتا يسع من شاء من الأسرة أن يذهب إليه ويقيم فيه، فقد كان واسعًا كبيرًا، فلما مات أبي وساءت حالنا بعده، اتخذنا لنا فيه شقة اقتصادا في النفقة، وعز علي ذلك في أول الأمر فقد كان لنا بيت خاص لا يشاركنا فيه مشارك، وكان عندنا الخادم والخادمة والبواب والبستاني، ومن العجيب أني أذكر مدخل البيت وساحته الرحيبة وحديقته والنافورة والحجرات من حول ذلك، وفيها مكتب أبي ومكاتب الوكيل ومساعديه ولكن ما عدا ذلك بهتت صوره، وأذكر أني كنت أدخل على أبي في مكتبه وعنده أصحاب القضايا، فأقف إلى جانبه

وهو مكب على الورق، وأنا ساكت لا أقول شيئا ولا أتحرك، حتى يرفع رأسه ويمد يده إلى فنجان القهوة، فأقول بصوت خفيض: أبويا، أبويا، أبويا هات قرش.. فيضع يده في جيبه ثم يخرجها بما تخرج به بقرش أو نصف فرنك، أو أقل أو أكثر فأتسلل بما أعطيته، فألقى أخي الأصغر ينتظرني عند الباب؛ فنخرج إلى الحارة حيث نجد بائع الدندرمة.. فندفع إليها ما معنا؛ ونأكل حتى نشبع ونحمد الله، أو لا نحمده فنميل على دكان مجاورة لبيتنا فنشتري كرات وبليا وما إلى ذلك نبدد الفلوس والسلام وكان أخي أصغر مني وكان جميلا مشرق الديباجة سمينا وبضا غضا، فكان أبي يخاف عليه أن تصيبه العين، ومن هنا أمر ألا يدخلوه عليه في المكتب لئلا يراه ذو عين فيحسده فاتفق يوما أني كنت عند عمتي، فلما مر بائع الدندرمة أقبل عليه الغلام بالطلب كالعادة، فناوله من مثلجاته، ولم يجد أخي معه ثمن ما أكل، فخلع طربوشه وعرض على الرجل أن يقبله بديلا من الثمن وكان أخي ولا يزال عظيم الرأس، فطربوشه يصلح للكبار، فمضى الرجل به ولم يعد بعدها لسوء حظه.

ومن الصور التي لا تزال ماثلة أمام عيني، أن جدي دخل على أبي في مكتبه يتوكأ على عكازه، فنهض له أبي واقفًا وأفسح الزباين له ليقعد ولكنه لم يفعل والتفت إلى أبي وطلب منه شيئا، فاستمهله هذا فما كان من الجد إلا أن رفع «العكاز» وأهوى به على كتف أبي، فتأوه واختبأ تحت المكتب، وانصرف جدي غاضبا ساخطا يلعن العقوق، وعاد إلى كرسيه في مدخل البيت.

وكنت أنا حاضرا هذا الذي حدث، فشق علي أن أرى جدي يضرب أبي بهذه الهراوة الضخمة، فخرجت إليه فناداني وأدناني منه وأجلسني على حجره وشرع يلاطفني ويدعو لي، ولكني كنت مغيظًا محنقا فتناولت شعرات من لحيته الكثة وشددتها وفي نيتي أن أنتفها كلها عقابا له، فزجرني وأدار وجهه ورفع يده له

لتخليص لحيته، فبدأ لي قذا له فصفعته فطار عقله ودفعني فارتميت على الأرض ورأيته يميل على هراوته ويتناولها فوضعت ذيلي بين أسناني وانطلقت أعدو.

وقد ظل جدي شهرًا يأبى أن يكلمني أو ينظر إلي، وأنا أكاد أجن من ثقل الشعور بالحرمان من عطفه، فلما فاءت نفسه إلى الرضا كتب لي حجابا وجلده - حفظا له من التلف- وعلقه على جنبي الأيسر ليقيني الله سوء الأدب، إذ كان قد وقع في روعه ووقر في نفسه أن الناس حسدوني فكان مني هذا الذي أسخطه علي.

وكان شر ما يمكن أن يعاب به الواحد منا نحن الصبيان، أن يراه أحد واقفًا يحدث بنتا أو يلاعبها، يا حفيظ! ولد يلعب مع بنت، هذا إثم كبير ومعصية توصد من دونها أبواب الغفران، فإنه عيب وسوء أدب وقلة حياء وفساد تربية وأشنع من هذا وأبلغ في العيب وسوء الأدب أن تلعب البنت في الشارع أو في ساحة البيت. ألا تكفيها حجرات البيت التي تطل نوافذها على الطريق وعلى فناء الدار.. وصحيح أن الشبابيك مسمرة؛ ولكن النظر من الثقوب ميسور وهذا يكفي، بل كان من العيب أن يرى الرجل زوجة أخيه إذا كانت غريبة أو من غير قريباته.

وتغرب الشمس فيجمعنا الخادم من الشارع، ويهش علينا كما يهش على الغنم أو الدجاج، ويردنا إلى البيت والحجرات ذات الشبابيك المسمرة مخافة أن يخطفنا أحد إذا بقينا نلعب في الحارة؛ أو يصادفنا «السماوى» فيميتنا، أو يظهر لنا عفريت فيركبنا أو يرعبنا أو يفعل بنا غير ذلك مما تفعل العفاريت؛ ويكون الحر شديدًا والليل جميل وتزهق أرواحنا في الغرف المكتومة ونشتهي أن ننعم بالليل والسماء الحافلة بالنجوم الخفافة اللمعان، ولكن لا سبيل إلى ذلك.

وكانت بنت خادمتنا في مثل سني، فكنت أتوق إلى ملاعبتها بعد إذ نهش إلى

الغرف في الليل فتأبى أمي وأمها ذلك علينا وتصرفاننا عنه لأنه عيب؛ وتجر الخادمة بنتها إلى حجرتها، تجرها من أذنها وتشد عليها وتقرصها وقد تضربها علقة، وتجرني أمي من يدي أو من شعري إذا حرنت، أو تحملني وأنا أضرب بيدي ورجلي في الهواء وأصرخ وأصيح وترقدني برغم أنفي على السرير وتغطيني باللحاف وتروح تحدثني عن العفاريت وتصف لي ما تصنع بالأطفال الذين-لا يسمعون الكلام ولا يفعلون ما يؤمرون؛ وتروي لي قصصًا يقف لها شعر الرأس ويتقبض الجلد عن «المزيرة المؤتزرة» و«أبي رجل مسلوخة» وغيرهما وغيرهما فأتضاءل ويدخل بعضي في بعض؛ وتهم بأن تتركني وقد اطمأنت إلى سكوني ووثقت أني غير مفارق فراشي في ليلتي تلك؛ فأصيح بها وأناديها وأدعوها أن تبقى إلى جانبي لأن «اللحاف» يحدق في بعينين تقدحان شررًا، أو لأن دهان الحائط يبدو لي عليه رسم يشبه ما سمعت من أوصاف أبي رجل مسلوخة فأنا أخاف أن يتجسد ويخرج من الجدار ويميل علي بأسنانه وأظافره.

وبعد لأي يغلبني النعاس فأنام وأنا أحلم بالعفاريت والإمساخ والليل المخوف والنهار الذي يعيد الطمأنينة، والسلالم المظلمة وما يختبئ لي عندها، ولم تكن أحلامي تخلو من متع منغصة، وما أكثر ما رأيت في منامي أني لاعبت هذه أو تلك من البنات وأن أهلي دهنوني بالسمن والعسل وقيدوني ورموني في ركن حالك السواد وتركوني للحشرات وغيرها من المؤذيات والمرعبات..

ويصبح الصباح فأحمل إلى «الكتاب» حملا، وهناك توضع قدماي في «الفلقة» ويهوي عليها «سيدنا» -فقيه الكتاب- «بالجريدة» أو «المقرعة» أو بكل ذلك إلى مساعده «العريف» وبهذا يبدأ النهار.

٢

لم يطل مكثي في «الكتاب» لأن أمي أصرت على المدرسة، وكان أبي مشغولا عنا بزوجة جديدة وكان عمله يضطره إلى السفر إلى «استنبول» فكان يقضي هناك ما شاء الله أن يقضي شهورا أو عام أو قرابة ذلك ثم يعود ومعه زوجة. وأحسبه كان يضطر إلى الزواج اتقاء من الإثم. ولكن الغريب أنه كان إذا احتاج إلى السفر مرة أخرى، يحمل معه الزوجة ويسرحها هناك ويجيء بغيرها وأظنه كان يحب التركيات ويؤثرهن على سواهن، وعسى أن يكون قد راقه منهن بياضهن وحسن التدبير والنظافة والطاعة والأدب، فإن يكن ذاك فما ورثت عنه إلا نقيضه، ولست أعني كما لا أحتاج أن أقول: إني أحب الوساخة وسوء التدبير وقلة الأدب والعياذ بالله، وإنما أعني أن اللون الأسمر آثر عندي وأحب إلي، وأنه إذا اجتمعت اثنتان واحدة بيضاء والأخرى سمراء، وكانتا من الحسن في منزلة واحدة، فالسمراء عندي أجمل وأندى على القلب، وعسى أن يكون هذا من التعصب لأمي ولنفسي، فإني أسمر أو إلى السمرة أقرب ولعلي أكره أن تزهى علي واحدة ببياض جلدها، ولكن هذا شطط فلأرجع إلى ما كنت فيه.

ولم تكن الزوجة الجديدة من استنبول وإن كانت تركية، وكان لها ولد من زوج سابق ترك على أرنبة أنفها آثار أسنانه، ذلك أنه عض أنفها في ساعة من ساعات الغضب أو الجنو، وكانت أسنانه نضيدة فتركت حزًا واضحًا، ولبعض الناس ولع بالأنوف في ساعة الغضب، فقد كان لي قريب يتناول أنف زوجته إذا ساءه منها فعل أو قول ويهزه يمنة ويسرة فيدور رأس المسكينة، وتتساقط دموعها.

ولم يهجر أبي البيت الكبير في سبيل هذه الزوجة الجميلة فقد كانت جميلة

والشهادة لله، وكان الرجل معذورًا ولكنه كان يقضي عندنا ليلة، وعند هذه الزوجة ليلة، فأما ليلته في البيت الكبير فكان يقضيها مطرقا يسمع التقريع والتأنيب من جدي تارة، ومن أمي تارة أخرى، وكان عظيم الحلم، طويل البال قليل الكلام، فكان لا يزيد على الابتسام، وهذا ما خالفته فيه أيضا، فإني أحمق طياش سريع الغضب حاد الطبع وثرثار لا يفرغ الناس من هذرء، ومن الإنصاف لأبي أن أقول: إنه ما بين شغله بزوجته الجميلة وما يكابده في البيت الكبير فضلا عن عمله المضني، لم يبق له وقت يعنى فيه بنا نحن بنيه الصغار، وكان لنا أخ كبير غير شقيق أذاق أبانا الأمرين وأراه النجوم في الظهر الأحمر، ومن حوادثه التي تروى أنه كان يصلي الفجر في مسجد الحسين، فخرج مرة إلى صلاة الفجر على عادته فألفى باب المئذنة مفتوحا، وكان المؤذن شيخا هرما ضخم الجسم كالفيل الصغير وكان أعمى فخطر لأخي أن يعابثه فصعد على أطراف أصابعه ووقف وراء المؤذن المسكين الذي لا يدري أن وراءه هذا الشيطان، وأنه ليرفع الصوت بالأذان ويصيح في سكون الليل (حي على الصلاة) وإذا بصوت من ورائه يرتفع فجأة ويصيح متمما (حي على الفلاح) فريع الرجل وله العذر، وكان ضخما كما قلت، وعلى صدره قنطار من الشحم، وكانت صدمة المفاجأة عنيفة فسقط مغشيا عليه وميتًا على قول، ولم يضطرب الأخ المحترم، بل أتم الأذان وانحدر إلى المسجد للصلاة ثم احتال فأغرى خدم المسجد بالبحث عن المؤذن المسكين وانصرف هو إلى بيته قرير العين راضيا عن نفسه ونام نوم الصالحين.

وكان أبي في وقت من الأوقات مدرسًا للغة العربية في المدرسة الخديوية فألحق بها ابنه ليكون تحت عينيه، فكان هذا الابن البار هو الذي زهد أبي في التعليم فنفض يده منه واشتغل بغيره، ولم يطل بقاء أخي في هذه المدرسة فقد طردوه فأدخله أبوه مدرسة صناعية، أو زراعية لا أذكر وكان يبيت فيها فصار يغري الطلبة زملاءه

بالخروج في فحمة الليل، وكان يربط البطاطين بعضها ببعض، ويدليها من النافذة ويتخذ منها هو وزملاؤه حبلا يتعلقون به، ويتدلون وبه يصعدون أيضا حين يعودون مع «الديكة» وظهر الأمر فاشتجر أخي مع ضابط المدرسة، وتماسكا وتضاربا فانكسرت رجل الضابط ولا آخر لحوادث هذا الأخ، وقد ظل إلى آخر لحظة من حياته مولعا بالعبث.

وكنت في السادسة أو حوالي ذلك لما أخرجتني أمي من «الكتاب» وبعثت بي إلى مدرسة عجيبة الحال، تمهيدا لإدخالي مدرسة حكومية، ذلك أنها كانت مدرسة بنات، ولكن فيها فصلا واحدًا للصبيان، وكانت صاحبة المدرسة خياطة ومن هنا معرفة أمي بها، وإرسالي إليها وكان يساعد هذه السيدة رجل قصير نحيف ولكنه غليظ الكبد، وكل ما أذكره أننا لم نكن نرى البنات أو نختلط بهن، بل كنا نوضع في حجرة ضيقة، توصد علينا بالمفتاح؛ فكانت هذه الحجرة هي المكان الذي نتلقى فيه الدروس وهي الساحة التي نلعب فيها، وإليها يجيئنا طعامنا ظهرا وكنا إذا تركنا المعلم نزحزح الأدراج عن موضعها. لنفسح مكانا لنا ونحن نتقاذف الكرة أو نجري «البلي» على البلاط، وما أكثر ما كسرنا زجاج النوافذ وغرم آباؤنا ثمنه.

وكان مساعد المديرة رجلا فظا كما قلت إذا أخطأنا أو قصرنا يأمر الواحد منا أو يخلع الطربوش ثم يضربه على رأسه العاري بالخيزرانة. وكنا في الفصل سبعة أو ثمانية؛ فحدث يوما أن أوسعنا ضربًا على رءوسنا فثرنا به من فرط الألم، وتمردنا عليه وأشبعناه لكما وركلا؛ ومزقنا له سترته الطويلة -الاستانبولين- وخطفنا العصا من يده وأذقناه وقعها على أصابع يديه وعلى ركبتيه ولا أحتاج أن أذكر أننا طردنا وأن المدرسة استغنت بالبنات الوديعات عن الصبيان الملاعين.

وكان ابن زوجة أبي معي في هذه المدرسة، فلما طرد كما طردت؛ وكان الوقت

قبل الظهر خاف أن يذهب إلى أمه بالخبر، فأشرت بأن لا يفعل؛ واقترحت أن نبحث بقية يومنا عن مدرسة أخرى ندخلها؛ فنخرج من هذا المأزق؛ فوافق ففعلنا؛ واهتدينا إلى مدرسة في شارع «تحت الربع» أو «درب سعادة» لا أذكر، وكان من الغريب أن صاحبها قبلنا بلا كلام أو سؤال أو مراجعة.

وبعد نحو أسبوع عرف أبي ما كان، فلم يقل شيئا ولكنه أخرجنا من هذه المدرسة وألحقنا بمدرسة أخرى في شارع محمد علي على مقربة من القلعة، وتسمى مدرسة «القرشوللي» وأظن أن زوجته هي التي هدته إليها وأشارت بها، فقد كان صاحبها تركيا، وفي هذه المدرسة كان الضابط وهو تركي أيضا يجلدنا بالسوط، ولا نكران أنه كان يترفق بالصغار أحيانا ولكن السوط كان في يده، وكان يكفي أن يلمسنا بطرفه وقد بقيت بهذه المدرسة إلى آخر العام واجتزت امتحانها، ولكن صاحبها أبى أن ينقلني إلى «فصل» أرقى، لأني صغير السن، فبقيت في السنة الأولى عاما آخر بلا موجب سوى حذلقة هذا المدير أو الناظر الذي استضأل جسمي واستصغر سني، واستكثر علي السنة الثانية من أجل ذلك.

وكنت أعود عصر كل يوم إلى البيت فأرمي كتبي وكراساتي، وأخرج إلى الشارع لألعب مع أقراني؛ فأزجر عن اللعب فأصعد وأطل على اللاعبين من الشرفة، وبي حسرة ولهفة. وأسمعهم يصفونني بالعقل والهدوء فألعن العقل وأذم الهدوء فقد كنت مكرها على ذلك لا مدفوعا إليه بطباعي وميولي، ومتى رأيت طفلا ساكنا قليل الحركة؛ فاعلم أنه مريض أو ضعيف أو ممسوخ ومتى يلعب الواحد ويجري وينط إذا لم يفعل ذلك في طفولته.

ويدخل الليل فأجلس قريبا من المصباح وأفتح الكتاب وأقرأ خوفا من السوط لا رغبة في التعليم، ويراني أبي، فيشفق على عيني أن تؤذيها القراءة في الليل، فينهاني

عنها، فأطوي الكتاب وأسكت؛ وأضيق ذرعا بهذا الصمت؛ فأفتح فمي وأهم بكلام فينهاني أبي وينهرني؛ ويقول لي: «لا تقاطع الكبار، ولا تحشر نفسك معهم» فأقول: إنه ليس هنا صغار أحشر نفسي معهم فمع من أتكلم؟ فيعبس ويضع أصبعه على فمه؛ فأسكت ثم ينفذ صبري فأعود إلى الكلام فيقول لي: ألم أقل لك أن هذا الكلام لا يليق. فأعترض بأبي أراه يتكلم وأرى أمي تتكلم فلماذا يليق بهما ما لا يليق بي، فيبتسم ولا أدري لماذا. ويربت لي على كتفي وخدي، وقد يقبلني ويمسح لي شعري؛ فأتململ وأقول له: إني أريد أن أتكلم وألعب فمع من؟! بنت الخادمة لا يليق أن ألاعبها لأنها بنت؛ وأخي أصغر مني بأربع سنوات وهو على كل نائم.

فتحملني أمي إلى الخادمة؛ وتوصيها بي وتتركني معها، فتسري عني بحكاياتها وأحاديثها حتى يغلبني النعاس.

وكنت أرى أبي يدخن وهو متكئ بكوعه على مخدة فيتلوى الدخان في جو الغرفة ويتولى خياله على الحائط؛ فأتتبعه بعيني تارة، وبأصبعي تارة أخرى، واشتهيت مرة أن أقلد أبي؛ فجئت بورقة ولففتها على صورة السيجارة وجعلت أضعها في فمي وأنا متوكئ على الوسادة وأنفخ كما يفعل أبي، ولكنه لم يكن هناك دخان يتصاعد ويتلوى، فأشعلت عود كبريت وأضرمت النار في اللفافة واتفق أني وضعتها على الوسادة فاتصلت بها النار وامتدت إلى حشوها من القطن تحت الكسوة ففزعت وخرجت أعدو؛ واختبأت وبعد قليل كانت النار مندلعة في البيت؛ وكان كل من في البيت يجري بالطشوت والأباريق والقلل لإطفاء الحريق فلم يجد ذلك شيئا وامتدت النار إلى غرفة أخرى ولم تكن شركة الماء قد مدت أنابيبها إلى البيوت. وكان السقا يمر بنا كل يوم فيملأ لنا الأزيار والطشوت وما إلى ذلك من الأوعية وكانت وسائل الاتصال بطيئة، ولا سيما في الأحياء الوطنية؛ فلا تليفون ولا ترام

ولا سيارات ولا شيء إلا الدواب ومركبات الخيل وكانت إدارة المطافئ تتقاضى خمسة جنيهات إذا دعيت لإطفاء حريق على أني لا أدري بماذا كانت تطفئ الحرائق ولا ماء هناك يجري في الأنابيب. فإذا قلت: إن البيت احترق؛ وإن الحارة كلها شبت فيها النار فلا يصدقني القراء؛ والمثل يقول: «يعملها الصغار ويقع فيها الكبار» أي والله.

٣

كان لأخي الأكبر زوجتان من قريباته تقيمان معنا في بيت واحد لهما منه الدور الأوسط، ولنا جدتي وجدي وأبي وأمير الدور الأعلى وللمكتب الغرف أو المناظر التي كانت في ساحة البيت، أو فنائه. وكان أخي كأبي مزواجًا، فاما أبي لا أعرف لماذا كان هكذا، فما أعرف في أسرتنا كلها من كانت له زوجتان في وقت واحد، أو من طلق زوجته. أما أخي فقد يبدو من المستغرب أن يتخذ امرأتين في حياة أبيه، وهو لا يكسب قرشًا بعرق جبينه، ولا مورد له إلا ما يجود به عليه الوالد، ولهذا يحسن أن أقول: إن أباه زوجه وهو صغير كما كانت العادة في ذلك الزمان ليفرح به، وكانت ليلة الجلوة ليلة سوداء أعني أن السرادق أقيم، وأضيئت الأنوار ونشرت الرايات، ومدت الموائد، وراحت الموسيقى تعزف، وشرع المغني يصعد إلى «التخت» وإذا بنبأ يجيء من سمخراط أو المرحوم إبراهيم أفندي الوكيل توفي فجأة، فأطفئت الأنوار، وانفض السامر وشرع الذين كانوا في جذل وسرور وحبور، يتهيئون للسفر إلى المأتم.

ومضت سنوات فلم يعقب أخي نسلا فقلق أبي، وقال قائل: إن الزوجة عاقر، وقال آخرون: قد يكون العقم علته من «الولد» فما العمل.. العمل أن يزوجوه من أخرى على سبيل التجربة وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان، وقد كان، ولكن «الولد» أعني أن أخي ظل لا يعقب شيئًا، ولم يفد من هذه التجربة، إلا أنه صار ذا زوجتين.

وعلى ذكر العقم، أقول: إن أخي هذا وشقيقته، عليهما رحمة الله، من أم أخرى ماتت قبل أن يتزوج أبي أمي، وقد شاءت الأقدار أن يكون نسلها عقيما، وأن يحرم

أبناءها -أخي وأختي- بعض زينة الحياة الدنيا وأن يقاسيا من جراء ذلك ما يقاسيه كل راغب في الذرية، وكان بلاء أختي أعظم، فقد اضطرت أن تصبر على الحرمان، وأن تحتمل ما يبديه بعلها من اللهفة على البنين وأن تنصح له بالزواج، فلما فعل ورزق طفلا طلق أمه أو ماتت لا أدري فتولت هي تربيته وتبنته وتعهدته وأولته ما انطوت عليه نفسها من عطف الأمومة المخنوقة وحفظ لها هو ذلك، فكان أبر الناس بها في حياته وأحناهم عليها وأعمقهم حزنا لما وافاها الأجل.

وأعود إلى أخي بعد هذا الاستطراد فأقول: إنه كان على هذا لا يجرؤ أن يسهر، أو أن يدخن أمام أبي، فقد كان السهر والتدخين محرمين على غير جدي وأبي، فأما جدي فكان يتخذ ما يسمى «الشبك» -بضم الشين والباء- وهو قصة طويلة جدا نحو ذراع ونصف ذراع يتصل بآخرها شيء يحشى بالدخان وتوضع عليه الجمرة. وأما أبي فكان يتخذ السجاير ولكن ما كان مباحا لهما، كان محرما على سواهما لا أدري لماذا وإن كان أخي ذا زوجتين.

وقد رأيت أخي مرة يدس السيجارة في جيبه وقد خرج عليه أبي فجأة، فتحرق الجيب، فيطبق عليه أصابعه ليخمد ما اضطرم.

وما أكثر ما كان أبي يضربه، لأنه يسهر، ويدخن، ولكن العلقة الكبرى كانت لما هو أدهى من السهر والتدخين، حدثني أخي بعد أن كبرت وأصبحت رجلا مثله لي شاربان أفتلهما ولحية أحلقها، قال: (لم يكن باقيا على العيد إلا بضعة أيام، فخطر لي أن أقص شعري قبل أن أذهب إلى الحمام) -وكان أخي مغرما بحمام السوق أو الحمام التركي، يؤثره على ما عداه- وكنت قد مللت حلاقنا، وكان شيخًا وقورًا له لحية كثة هائجة لا يعنى بتشذيبها وتقليمها، وسئمت فوطته الحمراء المخططة، والطشت الذي يضعه لي عند رقبتي ويترك لي حمله، فيسيل الماء الذي يصبه على رأسي بلا

حساب، على ثيابي وينفذ إلى بدني، فقلت: ألتمس حلاقا آخر، وذهبت أجوب الشوارع وعيني على دكاكين الحلاقين، حتى خرجت من الأحياء الوطنية ودخلت في الشوارع التي يكثر فيها الأجانب، واهتديت إلى حلاق أجنبي، فتوكلت على الله ودخلت فأقبل علي يرحب بي، وأجلسني على كرسي وثير لا عهد لي بمثله ونشر على صدري فوطة بيضاء مكوية، لها كمان يدخل فيها ذراعاي، وقص شعري، ثم نفض الفوطة وجاء بغيرها ولحق لي ذقني ورشها بماء الكولونيا، ثم راح يقترح علي أن يصنع كيت وكيت مما لم أكن أعرف مثل «الماساج» و«الشامبو» إلى آخر ذلك، وأنا جذل أهز له رأسي أن نعم، كلما عرض علي شيئا من ذلك، ثم قال: «مانيكور» فهززت رأسي موافقًا وإن كنت لا أعرف ماذا يعني، فدعاني إلى ما وراء ستار ونادى فتاة شقراء حلوة لا أدري من أي الفراديس جاءت، وقال لها كلاما فابتسمت لي وتناولت كفي الكبيرة الخشنة التي يغطي ظهرها الشعر، وعكفت على أظافري تنظفها وتقصها، ثم تناولت شيئًا جعلت تدهن لي به وأنا أكاد أموت من الخجل، وصدقني حين أقول لك: إن هذه أول فتاة غريبة لمست كفها كفي، فإذا أضفت إلى هذا أنها كانت ساحرة الجمال، ذهبية الشعر، وضاءة المحيا، مشرقة الجبين، نظيفة الأسنان، وأن ابتسامتها فاتنة، وفي صوتها عذوبة تذيب المرء، وأنها هيفاء ممشوقة، وخفيفة لطيفة، وأن في نظرتها لينا يغري بتطويقها وضمها، وأني ما عرفت من النساء إلا البدينات اللواتي يخنق روحهن ما عليهن من أكداس اللحم -إذا أضفت هذا كله- فإن في وسعك أن تدرك عذري حين أقول لك: إني عشقتها، ولم أستطع أن أقول لها شيئًا.

وكنت أنظر إليها كالأبله، ثم فتح الله علي، وأطلق لساني من عقاله فقلت وأنا مضطرم الوجه من الخجل: إني لم أكن أدري أن المانيكور هو هذا، وإني آسف، فإن كفي كبيرة كالرغيف وعليها غابة من الشعر، وأحسب أنه لا يليق بي أن أدعها تصبغ

لي أظافري، فإني أخشى أن أضطر إلى إخفاء يدي حتى يذهب هذا اللون، وهممت بأن أنزع يدي من يدها، فشدت عليها ولم تتركها لي، وقالت بأعذب ابتسامة رأيتها في حياتي:

إنه يسرها أن تنظر إلى هذه الكف الكبيرة الخشنة، وإن أكثر ما ترى من الأكف لين بض غض كأكف النساء، فلم أدر ماذا أقول لها في جواب ذلك، ولكني أنفت أن تصبغ لي أصابعي، وأبيت أن أناولها يدي الأخرى، وقلت: حسبي واحدة، وسألتها: متى يزول ذلك؟ فقالت: «أوه! إنه لا يدوم.. لا تخف» فاشتهيت أن أقول لها: إني أحب أن أراها مرة أخرى، ولكن لساني وقف في حلقي، فلم أنطق بحرف، واكتفيت بأن أمد لها يدي مصافحًا، فوضعت فيها راحتها الصغيرة فهززتها كأنما كنت أصافح رجلا فأدهشني أنها قالت:

«أرجو أن أراك» فكان جوابي السخيف: «ولكني لا أستطيع أن أقص شعري كل يوم» فابتسمت وخيل إلي أنها تكاد تميل علي وقالت:

«إني أخرج من هنا كل يوم الساعة السابعة مساء»

قلت: «آه! إذا كان هذا فسأنتظرك على الرصيف الآخر.. كل يوم».

قال أخي وهو يقص علي هذا الخبر: «وقد كان. تعلقت بها، وصرت أراها كل يوم نذهب نتمشى، وعرفتني أشياء كثيرة لم أكن أعرفها، ولو استطعت أن أتزوجها لفعلت، وقد أطلعتها على كل شيء ولم أخف عنها شيئا، ففهمت وعذرت، وبقينا صديقين حوالي عامين حتى خطبها واحد من أبناء جنسها، وأحسست منها زهدًا فيه، فأقنعتها بالرضا به إشفاقا عليها، ورغبة في الاطمئنان على مستقبلها».

ولكن هذا موضوع آخر، فلنرجع إلى المانيكور، وكانت يمناي لسوء الحظ هي التي صبغت أظافرها، فلما عدت إلى البيت وقابلت أبي تناولت يده لأقبلها، فسألني:

ما هذه الحناء التي في أصابعك؟ فأخبرته بما حدث، وفي ظني أني لم أصنع سوءًا، وما كنت أعرف ما هو المانيكور، وقد قلت له: إني لما عرفت ما هو أبيت أن أصبغ أظافر يدي الأخرى، ولكن وجهه أربد وهو يقول:

«وما فرق ما بينك وبين النساء الآن» ونهض فدعا إليه الخادم «العم محمد» كما نسميه وأسر إليه شيئًا فخرج، وما لبث أن عاد ووراءه ثلاثة من الزبالين الأقوياء، فأشار إلي فربطوني بالحبال، وألقوني على الأرض، وأنا من فرط الذهول لا أقاوم. وجاء أبي بخيزرانة طويلة وأهوى بها علي، لا يتقي شيئا ولا يبالي أين وقعت وماذا أصابت من بدني، ولم ينقذني إلا خالتي (يعني أمي، فقد كان يدعوها خالتي) فقد أسرعت وانحدرت إلي ولم تبال هؤلاء الزبالين، ولم تعبأ بظهورها أمامهم سافرة وفي ثياب البيت، وارتمت علي، وجعلت نفسها بيني وبين الخيزرانة فاضطر أبي أن يكف ولكنه أمر فسجنت في إحدى «المناظر» ثم خرج».

وأتم أنا الحكاية فأقول: إني توجعت لأخي وحزنت لما أصابه من الضرب الأليم، وما هو فيه من السجن ولم يكن أحد يستطيع أن يصنع شيئا، وإلا حل به غضب أبي، ولكني كنت طفلا لا أدرك هذا إدراكه، فصممت على إخراج أخي من محبسه وفك وثاقه، وكان لا بد من الحيلة، ولكن الأطفال شياطين فدبرت الأمر مع أخي الأصغر، وجليلة بنت خادمنا، وكان مفتاح «المنظرة» مع الخادم فلم نزل به نلاعبه ونتحين منه غفلة حتى سرقت المفتاح، وأوعزت إلى أخي وجليلة أن يبعدا به عن فناء البيت ففعلا، ففتحت الباب وأعياني حل الحبال فجئت بسكين وقطعتها، وأطلقت سراح أخي وقد ظل يحفظ لي هذا الجميل طول عمره.

وهنا ينبغي أن أذكر أني عدت إلى الخادم فدسست المفتاح في جيبه وهو لا يدرك ولا يزال هذا الخادم حيا ولا يزال يتعجب لأخي كيف وسعه أن يقطع الحبال الغليظة التي كان موثقًا بها، وأن يفتح الباب ويخرج، وكلما ذكر هذه الحادثة، هز رأسه وقال: الله يرحمه! لقد كان عفريتًا».

وكان هذا أول سر حرصت في طفولتي على كتمانه.

٤

قلت لنفسي بعد أن كتبت الفصول السابقة، وسردت فيها بعض ما أذكر من عهد الطفولة: «اسمع يا هذا، لقد رأيت أباك يضرب أخاك؛ ويلهب له جلده بالخيزرانة الطويلة، ولم يضربك كما كان يضربه لأنك كنت أصغر من أن تحتمل ذلك، أو لأنك كنت أشبه بالقطة الأليفة أو كلب البيت الذي يقبل منه أصحابه العبث ولا يرضون عنه أو يسرون به إلا إذا لعب وتشيطن وأظهر لهم نشاطه وذكاءه، أو لعل اتقاءه أن يضربك ويشويك بالعصا؛ راجع إلى أن أمك حية ترزق، وفي البيت معك وأن أم أخيك لحقت بمن غبر فلك دونه من يحامي عنك وأخوك كان قد بلغ مبلغ الرجال فكان أبوكما لا يسعه إلا أن تثقل عليه الشعور الخفي بأن هذا الشاب يزحزحه شيئًا فشيئًا عن مكانه وينزله يوما بعد يوم عن سلطانه، وأنه هو الذي سيحل محله عاجلا أو آجلا، كما حل هو محل أبيه أي جدنا وإن كان على قيد الحياة، وعسى أن تكون بواعث الضرب لا هذا ولا ذاك بل تصادم الشعورين، شعور الابن بأنه هو الشاب، وأن أباه قد شيخ، كائنة ما كانت سنه في الحقيقة وشعور الأب بأن ابنه هو ابنه فهو طفل بالغا ما بلغ طوله وعرضه، أو لا أدري ما العلة والباعث الصحيح، وإنه ليخطر لي مائة تعليل وتعليل ولا أرى واحدًا منها وحده يقنعني.

وخطر لي وأنا أحدث نفسي بهذا أن هذا التفاوت بين الأب والابن من المصائب، فنحن الآباء، قد كبرنا في نظر الأبناء؛ ولا يمكن أن يعد الابن أباه إلا شيخا هرما، تقضى شبابه من زمان طويل؛ أو خلعه عليه وتعرى هو منه؛ فلا يجوز له ما يجوز للشاب ويعقل منه؛ ولا يليق به إلا حال الشيوخ الفانين ولو كانت الحقيقة

أنه ما انفك قويا كفئا للحياة.

وذكرت وأنا أدير هذا المعنى في نفسي أني لم أسمع ولم أر قط في طفولتي؛ شيئا كلمة أو إيماءة أو نظرة تشي بالحب بين أمي وأبي. وكان يخيل إلي أن العلاقة بينهما قوامها الاحترام المتبادل أكثر مما كان قوامها الحب، وهذا خطأ، ولكنه هو الذي كان يبدو لي في تلك السن الغضة. ولقد مات أبي وأنا صغير وخلف لي أمي حزنت عليه اثنتين وثلاثين سنة؛ لم تخلع فيها السواد يوما واحدًا؛ وقد يكون هذا من الإكبار لا الحب، ومن أجل ما طابت به نفسا في حياته؛ ولكني أظنهما كانا متحابين أيضا فقد كنت أسألها فتبتسم وتطرق استحياء ويضطرم وجهها حتى في كهولتها الذاوية؛ وألح عليها بالسؤال فتنهرني؛ وتزجرني عما تظنه عبثا مني؛ وكنت أغالطها أحيانا وأفاجئها بالسؤال على هذا النحو: «ماذا كنت تحبين في هذا الرجل المزواج المتعب الذي جعل حياتك معه جحيما فائرًا بالغيرة» فكانت تؤخذ على غرة وتقول، قبل أن تفكر: «إنك لا تساوي الظفر الذي كان المقص يطيره من أصبعه» وتراني أبتسم فتدرك أنها اعترفت فتغضب أو تتكلف الغضب؛ وأحيانا تطردني من مجلسها؛ وهي تجاهد أن تعبس ويأبى وجهها إلا أن يضحك وتقول لي: «قم، طيب قم، كفى قلة حياء» فأنهض طائعا وأميل إلى رأسها فأقبله فترضى عني وتدعو لي فأقول لها ويدي على الباب:

اسمعي، لم أعرف أبي كما ينبغي أن أعرفه، فقد مات قبل أن أكبر؛ ولكن القليل الذي عرفته مضافا إلى الكثير الذي سمعته منك؛ يقنعني بأنه هو لم يكن يساوي الظفر الذي يطيره المقص من أصبعك وعزيز علي أن أقول هذا عن أبي؛ فقد كان على العموم رجلا فاضلا ذا كرامة، وإذا كنت أبخسه حقه فذاك لأنك عندي بمنزلة لا تدانيها منزلة، أنت خير الناس وسيدة الدنيا؛ وكل من عداك هباء. واسمعي أيضا،

أنا أحاول أن أحيا حياة فاضلة لأنك معي في الدنيا. مجرد شعوري بوجودك يرفع نفسي، ويعصمني من كثير، وما هممت بشيء إلا رأيتني أسأل نفسي هل ترضى عنه أمي لو علمت أو لا ترضى فأقدمُ أو أحجم تبعا لجواب السؤال، ولو خلت منك دنياي لما بقي شيء يصدني عن الشر والرذيلة، ولست أطيق البعد عنك لحظة ولكني مقتنع أنه لو كان أبي حيا لما أمكن أن أحتمله، ولا أطقت أن أعيش معه تحت سقف واحد، ولعل ذاك لأنك وأنت سيدتي تدعينني أشعر أني أنا السيد ولكني أظن السبب أني أحبك وأجلك وأني مدين لك بكل ما جعلني كما أنا؛ أطال الله عمرك.

ولكنه سبحانه لم يشأ أن يفعل.

كلا، لم يكن للحب ذكر، في بيتنا ونحن أطفال، ولكنه كان مع هذا موجودًا، بين أبوي على الأرجح وإن كنت أنا لا أرى دلائله ومظاهره، وبين جدي وجدتي على التحقيق. وكان جدي قد قارب المائة؛ وجدتي قد ناهزت السبعين، ولكنهما كانا كالطفلين ولم يكن أحلى من تناجي هذين القديمين اللذين ردهما الهرم إلى مثل حال الطفولة وسذاجتها وطيبتها، وكانا لا يعبآن شيئا بوجودي، وهما كما يقول الشريف الرضي:

تساقينا التذكر فانثنينا ... كأنا قد تساقينا الطلاء

وكان الذي يتناجيان به سهل الفهم فقد كان قصصًا وحكايات قديمة؛ مما وقع لهم وجرباه، ولكن الحنو، وعذوبة الصوت، والذوبان، وحلاوة اللمعة في العين التي انطفأ نورها أو كاد، واضطراب الشفتين إذ يقول الشيخ برقة: «هل تذكرين يا حاجة..» فتهز رأسها المصبوغ بالحناء، ويفتر ثغرها الأدرد ويومض السرور في عينيها ويشرق به وجهها الأحمر قد كانت بيضاء حلوة وتقول: «ايه» ممطوطة طويلة، ولكنها «آية» الرضا والحمد لله والاغتباط بجمال الذكرى. لا الأسف والأسى؛ فقد

كان حسب هذين المتهدمين من الدنيا، أنهما معا فيها، وأن غرفة واحدة تجمعهما؛ وأن لهما بنين وحفدة، كلهم أحياء وبخير ولله المنة، وكنت أرى منهما ذلك فأدرك أنهما مسروران وإن كنت لا أدرك كنه السرور، وأحس بفرحة غريبة بهذين الوجهين اللذين غضنتهما السن وحفرت فيهما أخاديد عميقة، فأرتمي على جدتي وأطوقها وأقبلها، فتضمني وهي تقول ضاحكة: «إوع تفعصني يا ولد» ثم تهوي على رأسي أو خدي بفمها الفارغ وتقبلني فيكون لقبلتها صوت كقولك «مق».

وأنا الآن رجل، ولي زوجة وبنون، لا بنات، فقد أبت مشيئة الله أن يكون لي بنات على إيثاري لهن، وأنا ابن هذا الزمن لا ذاك الذي عاش فيه أبي وجدي من قبله ومع ذلك أراني أستحي أن أقول لزوجتي: إني أحبها، وأشعر أنه لا يليق بي أن أقول ذلك، ولي كل هؤلاء البنين، وأحس أن زمن الكلام في ذلك قد فات وهو لم يفت في الحقيقة، لكنا جربنا وعانينا وفكرنا، فعرفنا عرفنا ماذا يحق للمرء أن ينتظر؛ سحره؛ وزالت فتنته؛ وفقد الحب تلك القدرة على خداع النفس ومغالطتها وايهامها.

ويا ربما قلت لنفسي؛ حين أخلو بها وتتدفق خواطري في هذا المجرى: «لماذا أخجل أن أقول لزوجتي: إني أحبها، أمام هؤلاء الأبناء...» وأقول في جواب السؤال: إن هؤلاء الأبناء يروننا كبارًا، ولا يتوقعون منا ما هو متوقع من الشباب، ولعلهم يظنون بنا أننا كنا في صدر حياتنا كل شيء إلا شبابا، ويهيجني ذلك ويثير نفسي فأقول ساخطًا معاندًا: «ولكني لا أنوي أن أجعل حياتي وفق ما يظنون» قاتلني الله إن فعلت، وأدخل على زوجتي ويكون معها هؤلاء البنون وغيرهم من الضيفان من الأهل أو الغرباء فأتعمد أن أنثني بالحديث إلى ذكر الحب، وأهم بأن أجري مع العناد، فأحس كبح الخجل، فأضطرب وأخرج من المأزق بمزحة، فيظن السامعون أني أهزل؛ وتعرف هي أني أجد.

فلا فرق بيني وبين أبي، وإن كان بين زمنينا كل فرق وما زلنا؛ نحس اللجام على أشداقنا، والأعنة الخفية التي تصدنا وتلوي رءوسنا، وتوجهنا وجهة غير التي تدفعنا إليها طباعنا، وغرائزنا، وبعد عشر سنين من الزواج والألفة والحال الوثيق يحمر وجه الزوجة إذا همست في أذنها بكلمة حب أو لفظ يشي به وإن كان لا يصارح وما أعرفني استطعت قط أن أقول لواحدة: إني أحبها بالغا ما بلغ جنوني بها، فإذا شق علي الكبح ونازعتني نفسي أن أقول، قلت ولكن مازحا، أو متظاهرا بالمزاح متصنعًا له لأشككها، ولأني أستحي أن أنطق باللفظ، أو على الأصح لأني أشعر إذا قلت الكلمة فقد صرت عبدها أعني عبدًا للمرأة لا للكلمة وأنها حقيقة إذن أن تتخذ مني حصانًا تركضه بين الوعور، وأنا لا أطيق أن أحس بقيد ما، ولو كان من حرير، وما أحسست قط بقيد إلا نفرت وشردت وتمردت. وأنا في كل يوم أقيد نفسي وألزمها أشياء شتى، ولا أزال قابضًا على اللجام أشده وأصرفه إلى هنا وها هنا، ولكن هذا لا يتسنى إلا إذا كان زمامي في يدي والأمر كله إلى إرادتي، فإذا شعرت أن يدا أخرى تريد أن تقبض على الزمام طار عقلي، وفقدت اتزاني وركبت رأسي، وأكون واثقًا أن هذا خطأ، وأنه عناد صبياني، وأني لو وكلت إلى نفسي ورأيي لما فعلت إلا ما يراد من أن أفعل ولكن طبيعتي تغلبني فأشقى، بين دعوة العقل العاجز ودعوة الطبع الجامح.

والناس لا يضربون بنيهم في هذه الأيام كما كان أبي يضرب أخي، وهم في هذا على حق، فإن الضرب ليس تأديبًا وإنما هو ترفيه عن الوالد، ووسيلة لإراحته من ثقل الشعور الذي يجيش بصدره، فهو شيء ينفع الأب ولا ينفع الابن.

ودأب الناس في زماننا أن يترفقوا بالأبناء ويجنبوهم التنغيص، وهذا جميل ولكني أحس أنهم يبالغون في الرفق ويسرفون في اللين، ويجعلون حياة الطفل أرغد مما ينبغي

وأخلى من المشاكل والعقد، ومن كل ما يستدعي إجهاد الفكر أو ما يستثير الشعور ويوقظ النفس؛ فليتهم يضربون أحيانا برفق أيضا ولا بأس من أن يخرجوهم إلى العناد ويدفعوهم إلى التمرد، ليعرفوهم بأنفسهم ويكتشفوا لهم عن بعض خفاياها.

جرى هذا ببالي وأنا أكلم شابا في الثانية والعشرين من عمره، ولم أكن أعرف ماذا تعلم أو يتعلم وكان كلامنا في شيء من الهندسة فوافقني على رأي كان يعرف كما تبينت فيما بعد أنه خطأ محض فقد كان طالبًا في مدرسة الهندسة وكان فنه ما خضنا فيه، ومع ذلك لم يخالفني، ولم يصحح لي غلطي فإذا كان هذا لا يضرب حتى يدمي جلده ويتسلخ ليتعلم احترام النفس وليفهم أن المخالفة ليست عيبًا وأنها ليست من سوء الأدب بل من الواجب ما دام يعتقد أنه على حق فمن غيره الجدير بالضرب... وكيف تكافح هذه النعومة وذاك التطري لتجعل من ابنك رجلا يعرف قدر نفسه ويكرم عقله... أما أنا فسبيلي كسبيل أبي، ولست أستعين بالزبالين ولا أنا أقسو قسوته، ولكني لا أحجكم عن قرص آذانهم ولكمهم إذا رأيتهم يجبنون أو يكذبون أو يبكون الغير «ما يبكي الرجل» وقد جاءني واحد منهم يبكي وقال: إن تلميذًا معه في المدرسة ضربه؛ فسألته عنه أهو أكبر منه.. وهل هو أضعف من أن يضربه كما ضربه... فكانت نعم هي جواب السؤالين، فتناولت أذنه الصغيرة وقرصتها قرصًا وجيعًا وقلت له: «ألم يكن في الشارع حجر تتناوله وتقذفه به فتفتح له قرنه..» قال: «بلى» قلت: «لماذا تجيئني باكيا وفي وسعك أن تنصف نفسك منه» وأنذرته أني لا محالة قاتله إذا تكرر منه ذلك؛ ولم يكن القتل ما أعني، وإنما عنيت الضرب الأليف؛ وقد فهم عني الطفل؛ وأثبت لرفاقه أنه كفء لهم، فكفوا عنه وهابوه، وقد احتجت بعد ذلك أن أجعل جرأته غير راجعة إلى مجرد الخوف مني.

أظن أن هذا خير وأهدى من هذه التربية الطرية التي تفضي إلى التخنث.